دور الوقف في بناء الحضارة الإسلامية

س: الكل يعلم أن الوقف قد قام بدور كبير في بناء الحضارة الإسلامية، فهل تتفضل فتكشف لنا عن بعض معالم هذا الدور؟

ج: بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

كما تفضلت، تكاد هذه المعلومة أن تكون معلومة للقاصي والداني، للمسلم ولغير المسلم، وقد كتب في ذلك الكثير من الكتب. والآثار المادية للحضارة الإسلامية وروائعها لازالت باقية شاهدة على الدور الذي قام به الوقف منذ عصر الإسلام الأول إلى سنين قليلة مضت، والآثار الفكرية والعلمية والثقافية، قد نقلها العلماء الثقات موثقة شاهدة على ما للوقف من دور في إقامة صرح الحضارة الإسلامية الزاهرة.

س: نحب أن تقدم لنا فكرة محددة عن إسهامات الوقف في النهضة الحضارية الإسلامية ممثلة في العلوم والفنون المختلفة.

ج: قبل الحديث عن ذلك نلخص موقف الوقف الإسلامي من التعليم بصفة عامة، فننقل مقولة أحد الباحثين الذي قال: من المؤكد أن جميع المدارس والمراكز العلمية التي تم إنشاؤها في التاريخ الإسلامي، إنما كان يعتمد في تمويلها وإدارتها على مؤسسة الأوقاف، رغم تنوع مهام تلك المدارس من حيث الحجم والتخصص والإمكانات، وقد كان التعليم فيها مجاناً ولجميع قطاعات المجتمع بفضل عوائد المؤسسة الوقفية.

وبعد هذا الإجمال نقول: منذ البداية والوقف يؤدى دوراً بارزاً في هذه المجالات

فالواقفون المسلمون لم يغفلوا مجال الطب في أوقافهم ولم يغفلوا ميدان الصيدلة والبيطرة والكيمياء وعلوم النبات كما لم يغفل الواقفون الإسهام في تطوير الصناعات والحرف المختلفة، ونستطيع أن نرصد إسهامات الوقف في المجالات السابقة.

ففي الميدان الطبي، كانت الرعاية الصحية تعتمد بشكل رئيسي على أموال الوقف، حيث بنيت المستشفيات التعليمية التي امتزج فيها الأطباء بالمتعلمين الذين كانوا يمارسون ما تعلموه نظرياً تحت إشراف الأطباء، وكذلك دونت الكتب الطبية التي كانت تدرس في أوربا حتى القرن التاسع عشر، والتي كان لها فضل كبير في النهضة الحديثة لأوربا.

كذلك كان للوقف دور متميز في تطوير علوم الصيدلة والبيطرة والكيمياء والنبات، حيث إن المدارس الطبية الملحقة بالمستشفيات التعليمية الوقفية ساهمت في نشوء علوم مستقلة للصيدلة والبيطرة، وساهمت في تدوين العديد من الكتب في تلك المجالات، ولم يكن ذلك ليتم لولا الإنفاق المتواصل من قبل الوقف على البحث العلمي في هذه المجالات. وتوصل العلماء إلى كثير من الاكتشافات في مجال الصيدلة وعلم الأدوية وتكنولوجيا استخراجها من النباتات والأعشاب، وعرفوا الأدوية المركبة، والأدوية المفردة. وقد أنشئت الجامعات التي تدرس العلوم والفنون، وأوقفت عليها الأراضي والحوانيت والعقارات لتضمن استمرارها في دعم القدرة العلمية بتأهيل البشر الذين هم العنصر الأساسي في التقدم العلمي الحضاري. إن أول جامعة شاملة ممولة من الأوقاف قد أنشئت في بغداد سنة ٦٢١هـ ودرست فيها علوم الرياضيات والفلك والطب والصيدلة وعلوم الطبيعة إلى جانب العلوم الشرعية، وتلا ذلك إنشاء العديد من المدارس كالمدرسة الصالحية والظاهرية والمعتصمية

والمسعودية والصلاحية ومدرسة السلطان حسن، وكل ذلك على سبيل التمثيل وليس الحصر.

س: هذا عن إسهامات الوقف في مجال العلوم، فما هي إسهاماته في مجال الفنون والصناعات؟

جـ: لقد ساهم الوقف في تطور الصناعة، سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، كما أن الأوقاف عضدت المهن والحرف واهتمت بتعليم الحرف اليدوية البسيطة. ففي ميدان الصناعة ساعدت الأموال الموقوفة على الحرمين الشريفين والأموال الموقوفة على المساجد والمدارس على تقدم وتطور فن المعمار والزخرفة والنقوش، وفي تطور تقنية صناعة كسوة الكعبة المشرفة وصناعة السجاد، والتفنن في صناعة شتى أنواع البخور والعطور لتطييب الكعبة المشرفة وبيوت الله، وساعدت على الإبداع في صناعة المعلقات من ثريات وقناديل كانت تعلق في المساجد والمدارس. وقد أكد البلاذري أن صناعة الأغذية والملابس والأخشاب والزجاج والورق والقناديل والعطور والسجاد قد تطورت بشكل ملحوظ بسبب كثرة الأموال الموقوفة على جهات متعددة، تلبية لاحتياجات تلك الجهات الموقوف عليها من هذه الصناعات، أي أن الوقف خلق طلباً على العديد من الصناعات، فنمت وتطورت هذه الصناعات استجابة لهذا الطلب.

كذلك فإن كثرة الوقفيات على المكتبات العامة قد جعلت المسلمين يهتمون بالصناعات المرتبطة بالكتب مثل صناعة الورق والتجليد، وأدوات الكتابة والخط،

وأدى ذلك إلى بروز عمال أتقنوا هذه الصناعات التي تركزت في بغداد وسمرقند ودمشق وطرابلس والقاهرة والأندلس.

كذلك فإن الأوقاف على المرابطين والمجاهدين قد ساهمت في تطور صناعة السلاح، وقد نشأت العديد من دور صناعة السلاح خاصة في مصر والشام أيام الحروب الصليبية على بلاد المسلمين.

س: ماذا عن دور الوقف في دعم المهن والحرف؟

ج: لقد دعمت الأوقاف تعليم المهن والحرف، التي لا يستغنى عنها أي مجتمع، حيث وجهت الوقفيات لسد حاجة المجتمع من شتى المهن والحرف، حتى إن هناك أوقافاً خصصت لتعليم المساجين حرفة أو مهنة أو صناعة، يستطيع من خلالها السجين أن يكتسب بعد خروجه فينفع نفسه وأهله ومجتمعه. ولقد ساهم الوقف بشكل مباشر في عديد من الأنشطة الداعمة للبحث العلمي والتطبيقي من خلال وقفيات إنشاء البنية التحتية من طرق وجسور وقناطر وأربطة واستراحات على طرق السفر، الأمر الذي خلق طلباً على شتى المهن والحرف فسعى الناس إلى تعلمها. إن الدراسة العميقة لتاريخ حضارتنا تكشف أن الوقف كان له إسهام بارز في إمداد تلك الحضارة بالمال والإبداع والقوة، مما رعى مسيرتها، وحافظ على بقائها واستمراريتها حتى في أشد الظروف حلكة.

والله الموفق